حول كتاب

من كتب الجاحظ

قد خدم العلامة محمد راغب الطباخ العلوم الاسلامية خدمة كبيرة بنشر كتاب[1] الدلائل والاعتبار للجاحظ اذان كل كتاب من قلم هذا الفيلسوف الشهير يزيد في تقديرنا لترقي العلوم في زمانه وليس قصدي هنا تقريظ الكتاب ولا المؤلف وكانت نسخة من هذا الكتاب في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٥٣٨٣٣٦ وعزم صديقي المستر جيب (Gibb) احد اساتذة المدرسة الشرقية في لندرة على نشرها فأخذ منها نسخة لهذا السبب ولكن لما زار مصر حديثاً اهداها الى العلامة احمد زكي باشا . ولما كانت الطبعة منقولة عن نسخة واحدة أحببت مقابلتها بالنسخة اللندنية وهذا ما وجدته : اولاً ان للنسخة اللندنية مقدمة ليست في المطبوعة وهي ايضاً اقل حجماً بكثير وتنتهي في وسط المطبوعة تقريباً ومع هذا ان اكثر العبارات مقتضبة ولكن لا شك انها الكتاب نفسه فرأيي ان الناسخ اقتصر على ماظنه مؤدياً للمراد . ورجائي انه سيكون نافعاً أن انشر ما نقص من اول الكتاب ولقد صححته على حسب الطاقة لان التحريف كثير من الكاتب اليماني الذي كتب النسخة اللندنية ولاجل ان يرى الاختلاف بين النسختين في الألفاظ نقلت ايضاً قسماً من اول النسخة المطبوعة للمقابلة بينهما مع الاشارة في ذيل الصفحات الى تصحيح ما أمكن تصحيحه .

ف . كرانكو

وهذا هو الفصل المنقول من اول النسخة اللندنية :

« كتاب العبر والاعتبار تأليف ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ »

بسم الله الرحمن الرحيم

والسلام على عباده الذين اصطفى . قال ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ :

---

(١) المجمع : راجع تقريظ هذا الكتاب في مجلة المجمع من المجلد الثامن ص ٤٤٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحمد لله الذي سمك السماء بقدرته ، وجعل الارض مهاداً بحكمته ، ونظم ما بينهما ببراهين بادلة(١) خالق الامور المتعادية ، والآلات المتباينة ، والجواهر والاعراض المختلفات والمتفقات من نور وظلمة وذي سكون وحركة وانس ووحشة وخفاء(٢) ورقة وضعف وقوة ونوم ويقظة وضحك وبكاء وغضب ورضاء الذي أخفى النفوس في الأجسام والطفها فيا ترى ثم دبرها بما يحسن (٣) ويشاهد والذوق (٤) واللمس والشم ، وأيدها بالأيدي والأرجل الحوامل العوامل ، ومكنها من المعرفة والحجة وجعل ما وهب لها من ذلك حجة لها ان شكرت ، وحجة عليها ان كفرت ، وشاهداً بتبصيرها ان قصرت . والحمد لله الاحد الواحد الكريم الماجد ، الذي لا تشتمل عليه المشاعر ، ولا تحجبه السوائر ولا تدركه الخواطر ، الاول لا تأويل عدد ، الآخر لا بمعنى غاية بعد الشاهد من غير مماسة ، البائن لا عن مسافة الظاهر لا للابصار ، والباطن لا من غير طول الذي دل على نفسه بآيات قدرته ، الموجود في بريته ، واستشهد على لطفه بفعله ، وجعل الحجاب بينه وبين خلقه ، ضعفهم عن ادراك قدرته ، فذاته مجهولة الا له وآياته معلومة بين خلقه معروفة لما وهب لهم من تبصرة هدايته ، ليس سواه إله ولا غيره رب معبود الذي حجب الابصار عن رؤيته ، وليس للعقول سبيل الى معرفته ، وأخرس الألسن عن تحديد كنه صفته ، فلا أعين المؤمنين تدركه ، ولا أنفس الكافرين تجحده وتنكره .

والحمد لله الذي خلق فأحسن الخلقة ، ونظر فأتقن النظرة ، وفتق الافهام للمعرفة ، وذلل الجوارح للطاعة ، وهدى الى طريق النجاة والسلامة ، وزجر عن سبيل الضلالة والجهالة ، ثم مد لخلقه حبل الامهال ، وبسط لهم في النظرة ووعدهم المغفرة والاقالة ، حتى ارعوى مرعوٍ واهتدى(٥) مهتدٍ بعد التخير والتهور ، تتميماً للنعمة وزيادة في الاعذار لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما . فنعوذ بالله الكريم من غلبة الشقوة ، ونسأل الله العظيم الزيادة من البصيرة والمنفعة بالعلم وان لا يجعل شيئاً منه وبالاً في الآخرة وهو على كل شيء قدير . اما بعد فانه ليس باهل البر والتقى

(١) كذا ولعلها وادلة . (٢) لعل صوابه وجفاء . (٣) لعل الصواب يحس . (٤) لعل صوابه بالذوق . (٥) بالاصل : اتهدي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا بذي الغباوة والرَدى غناء عن التواعظ والدلالة على امكنة الخير والتواصي والتناهي عن الشر لما في ذلك من التذكرة والتبصرة والتأديب والتهذيب والبركة والمنفعة ولو كان بين عدو الله ابليس الضامن احتناك الذرية الضعيفة الا قليلاً وبين قلوب العباد اغلاق سوى الذكر لله تعالى لوجب طلب مفاتيحها علينا بتحمل المشاق وركوب الاخطار والتغلغل الى خفي اماكنها لنأمن كيد عدونا الذي يجري مجاري الدم منا و يرانا من حيث لا نراه وله تسلط على سويداء القلوب وحرص على استزلالنا لنعطب فأوجب الاعداء عباد الله بان يحذر من ليس يحرس من كيده حارس سوى التعوذ بذي الجلال والاكرام والفزع الى تلاوة كتبه وترديد اسمائه الحسنى والتعلق بذكره واللهج والعزم بالالتجاء اليه فليكن بالك ايها الانسان المخلوق من ضعف وطين وماء مهين معتنياً بذكر الله تعالى ومتوطأ بالفزع اليه ومسألة النجاة من كيد عدوك وعدوه والسلامة من خيله ورجله ومكر جنوده فان لم أفواهاً والسنة تلتقم القلوب والاسماع وصوراً مختلفة الفعل لا تتراءى للأبصار ومداخل لطيفة تصل الى النفوس بمراده من الاضلال والاستزلال واعجب واعجب ايها الانسان ممن جهل معرفة الواحد الخالق الرحيم الرحمن وقد أراك الآيات والبينات في الآفاق وفي نفسه والنماء والنقص في أحواله وفي أهله وجسمه واوجه الامور التي تتم بها منافعه والمآرب التي اليها تتناهى مصالحه وكيف تهيأ له قبل خلقه مفروغاً منها قبل خروجه الى الدنيا متممة مكملة وهو في ظلمة الرحم مصنوعة منظومة على أتم صفة قبل تكوينه وانه لم يمهدها لنفسه ولا ادعى ابوه تمهيدها ولا أمه ولا احد من أبناء جنسه ثم ليس منها على كثرتها شيء الا وهو مركب تركيباً لم تكن المصلحة تتناهى الى ما دونه ولا تتجاوز مافوقه ولا ترغب من شيء منه وان الطبائع جميعها لتشهد انها لم تصنع ذلك وتعترف بالعجز عنه . ولو ادعت خلاف ذلك لانقطعت اسباب الحقيقة عن دعواها وشهد بالمحال عليها عجزها واثر الضرورة المحيط بها .

قال ابو عثمان ونحن ذاكرون اشياء من شواهد آثار الصانع في صنعته ومنبهون على أسرار قد أودعها ما يشاهده من فطرته تضطر الى معرفته وتشهد بوحدانيته وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته وواصفون أعلاماً وآيات و براهين واضحة شهدت بها الغائز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتهتف بذكرها الغرائز وتعرفها الطبائع ولا ينكرها (١) ولا تدفعها العقول بمقدار وسع الطاقة ومبلغ الجهد وما وهب الله لنا من العلم وما توفيقنا الا بالله عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم ليزول الشكوك عن قلوب المرتابين ويتجدد نور اليقين في صدور المؤمنين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد ألف مثل كتابنا هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما أوضحوا معانيه ولا بينوا المشكل منه فمنهم جبريل بن نوح الأنباري لانه صدر كتابه بغير خطبة ولا مقدمة ورتبه ترتيب الفلاسفة وصدره بكلام منغلق ونظمه نظماً غير متسق فكأن لم يألف (٢) وقبله الف في معناه تودرقوس (٣) أسقف طرسوس كتاباً وضعه في زمان بلنسيانوس (٤) عظيم الروم الذي كان ينتسب بالقول بالدهر والعصبية لدين الكفر وكان هذا الملك من اهل التلبيس والتدليس وسمى تودرقوس (٥) كتابه كتاب التدبر ونقله من اخذه عنه من السريانية الى العربية فلم يقع بفساد النقل حيث ينبغي ان يقع من الايضاح والشرح وأفسده بتأول الالسنة وسوء العبارة .

ومنها كتاب نظمه ثاور يطوس (٦) أسقف قورس كتبه باليونانية ونُقل بعده الى السريانية ثم الى العربية فجرى مجرى الاول المفسود بتداول النقل والعبارات .

ومنها كتاب ألف في ايام بني أمية نظمه يسوعبخت (٧) مطران فارس وكتبه بالفارسية فاكسبه استغلافاً . وقد جمعنا في كتابنا هذا محاسن ماوجدنا في هذه الكتب وزيادة بمقدار الطاقة والتوفيق من الله جل ذكره وشرحنا ما نقلنا عن غيرنا وبينا القول فيما زدنا ورتبناه ترتيباً يؤنق السمع ويسر القلب ويبسط السامع ويوجب الحجة على المخالف وما توفيقنا الا بالله .

(٨) قال ابوعثمان الجاحظ : ان أناساً لما جهلوا الاشياء التي في الصنعة تدل على

---

(١) بالاصل يندكرها . (٢) لعل صوابه يؤلف . (٣) بلا نقط بالاصل .
(٤) بالاصل : بلسانوس . (٥) لعل الصواب يستينيانوس (Justinianus)
(٦) لعل الصواب ثاوفرسطس (Theuphrastos) . (٧) بالاصل يسوعجب كما ترى .
(٨) من هنا نبتدئ النسخة المطبوعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصانع سبحانه والاسباب والمعاني التي في الخلقة وقصروا عن تأمل الحكمة لاشتغالهم بلذات نفوسهم وشهواتهم وما آثروا من امر الدنيا خرجوا الى الجحود والانكار والبهت والتكذيب فأنكروا خلق الاشياء وزعموا انها لم تزل هكذا موجودة وانها على الاهمال لا على القصد والعمد والتدبير والتقدير فكانوا فيما يشاهدون من الأدلة و يرون من العالم بمنزلة من دخل داراً وهو اعمى ليس معه قائد يخبره بما فيها و يصف له حسن فرشها واتقان بنائها وما قد أعد فيها من المآكل والمشارب والملابس والمنافع والمصالح فأقبل يسعى وحده ويمشي على وجهه فعثر بشيء في طريقه فدميت قدمه فظن ان ذلك الشيء الذي عثر به مما وضع في غير حقه وهو جاهل بالمعنى الذي وضع ذلك الشيء قبل مروره وضجر وذم الدار وعاب بانيها وانكر حكمته وتسخط فعله الخ .

وفي آخر النسخة اللندنية : وافق الفراغ من تحصيل هذا الكتاب يوم الثلوث (١) سابع شهر شعبان سنة ١٢٥٨ .

(١) كذا في الاصل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net